[146] يا هشام إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم. يا هشام إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب وترك الدنيا من الفضل وترك الذنوب من الفرض. يا هشام إن العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة فطلب بالمشقة أبقاهما يا هشام إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، لأنهم علموا أن الدنيا طالبة مطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته. يا هشام من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد والسلامة في الدين، فليتضرع إلى ا عز وجل في مسألته بأن يكمل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه ومن قنع بما يكفيه استغنى ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبدا. * الشرح: (يا هشام إن لقمان قالا لابنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس) التواضع التذلل من الوضع وهو خلاف الرفع ويحصل ذلك بالاجتناب عن التكبر والافتخار وسائر المنهيات والاتيان بالأوامر والمصالح وسائر الخيرات والتمسك بحول ا وقوته في الحركات والسكنات ولا ريب في أن هذه خصلة عظيمة دلت على أن صاحبها من أعقل الناس لأن العقل هو الداعي إليها ويمكن أن يكون المراد أن تواضعك سبب لصيرورتك من أعقل الناس، ويؤيده ظاهر الشرط المقدر وتوجيه ذلك أن العقل من أفضل النعماء وشكرها التواضع وشكر النعمة يجلب الزيادة كما قال سبحانه * (ولئن شكرتم لأزيدنكم) * فالتواضع سبب لازدياد العقل وكماله * (وإن الكيس لدى الحق يسير) * الكيس - بفتح الكاف وتشديد الياء مع كسرها - من دان نفسه وعمل لما بعد الموت أي العاقل الذكي المتأني في الأمور وحسن عاقبتها، وقد كاس يكيس كيسا وكياسة يعني أن العاقل الذي يعمل بمقتضى عقله ويطلب ثواب ا ورضاه بتسديد قوتي العلم والعمل عند الحق قليل لظهور أن أكثر الناس تابع للنفس وهواها مشتغل بلذات الدنيا ومقتضاها كما نطق به الكتاب العزيز في مواضع عديدة والسنة النبوية في مواطن كثيرة، وهذا الحكم وإن كان ظاهرا لكن لما كان خلافه أولى صار بهذا الاعتبار محلا للانكار، فلذا أكده، ثم لا يبعد أن يكون الغرض من هذه الأخبار هو التنبيه على أن الاعتزال عن أكثر الناس أولى وأهم والفرار عنهم أحرى وأسلم، ويحتمل أن يكون الكيس - بفتح الكاف وسكون الياء - وهو العقل والذكاء وحسن التأني في الامور.
